بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

السلطان محمد الثانى الفاتح

من أكبر الشخصيات التى تركت أثرا باقيا فى حياة العالم لانزال نلمسه إلى الوقت الحاضر شخصية السلطان محمد الثانى . وهذه الشخصية عظيمة لأنها حولت مجرى التاريخ الاسلامى والعالمى .

وإذا ذكر أعلام الإسلام فى السياسة والحرب فمحمد الثانى العثمانى بلا ريب فى مقدمتهم ومن أعاظمهم فهو الذى بنى ملكا للأتراك ثابت الأركان وهو الذى ثبت قدم الاسلام فى أوربا بالقضاء على العقبات التى تقف فى طريقه . لقد وضع السلطان محمد الفاتح نهاية للدولة التى وقفت فى سبيل الاسلام فى أقوى أيام جبروته وعظمته ، ومنعته من أن يسيطر سيطرة تامة على الشرق الأدنى ، وعاقت تقدمه وانتشاره فى شرقى أوربا وإذا كانت قبائل الفرنجة من الجرمان قد صدت أمام غارات المسلمين فى غربى أوربا ، فلقد وقفت الدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطية أمام قوات الاسلام مدة تنيف على قرن سبعة . قابلت هذه الدولة نهايتها أمام قوات السلطان محمد الثانى حين استولى على عاصمتها وأعظم مدنها بل وأعظم مدن العالم المسيحى فى شرق أوربا فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى

ويعد عصر محمد الثانى من أقوى عصور الأتراك العثمانيين ، ففيه تركزت النظم العثمانية وثبتت دعائمها ، وفيه بدأ تقنين القوانين الذى

سيلخ شاوه فى عهد السلطان سليمان القانونى . كان عهد محمد الفاتح عهد فتح وحرب وتنظيم كما كان عهد أدب وفن وثقافة وعلم ، فالسلطان الفاتح كان مجيدا لعدة لغات غير لغته التركية مجيدا لقول الشعر مغرما بالموسيقى ، ونبغ فى عهده فى الأدب عدد لا يستهان به ، فلقد كان يقول الشعر عدد من كبار رجال دولته كما نبغ فى العلوم الشرعية واللغوية عدد كبير من العلماء الأماثل

ولقد حاول المؤلف فى هذه الكتاب أن يصف حياة هذه الشخصية العظيمة وأن يلم إلمامه موجزة بالعصر وحوادثه .

ويقدر الكتاب كل التقدير فضل أستاذه المؤرخ الكبير حضرة صاحب العزة محمد شفيق غربال بك ، فهو الذى وضع أساس هذه الدراسات فى الجامعة ، وهو مدين بالشكر الجم للمساعدة الحقيقية القيمة التى تفضل بتقديمها الأستاذ ابراهيم صبرى مدرس اللغة التركية بجامعة فاروق الأول ، فلقد زود الكاتب بكثير من المعلومات الطيبة وترجم له النصوص التركية الشعرية والنثرية . ولا ينسى الكاتب كرم الأستاذ صاحب الفضيلة الشيخ ابراهيم حلمى القادرى بالاسكندرية لتفضله وضع مخطوطاته القيمة ومراجعه الثمينة فى التاريخ العثمانى تحت تصرفه كما يشكر زميليه الأستاذين عبد المحسن الحسينى وجمال الدين الشيال للمساعدة التى تفضلا بتقديمها له

الاسكندرية فى سنة ١٩٤٨

مقدمة

تضعضعت قوى الإسلام فى الشرقين الأدنى والأوسط منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، وأصبح الخليفة العباسى فى بغداد ، سليل المنصور وهرون الرشيد لا حول له ولا طول ، وتفككت الدولة الإسلامية وانحلت أمورها وتوالت عليها الكوارث من كل جانب .

ولكن بقى اسم العباسيين فى بغداد رمزاً لمجد قديم وعز لا يبارى وملك وارف الظلال إلى أن زال ذلك الرمز وامحى ذلك العز نهائياً من على ضفاف دجلة والفرات حين قدم التتار إلى بغداد مدمرين مخربين ، وجعلوا من دار السلام ومدينة المنصور وحاضرة العباسيين خراباً بلقعاً فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

زالت أعظم دولة إسلامية تنتسب إلى أصل عربى صميم ، ودكت معالم حضارة ازدهرت فأفادت العالم أجمع ، وضاع مجد لم تعرف له العراق مثيلا إلا فى عهد الأكاسرة الساسانيين .

* * *

وفى الوقت الذى كانت فيه قوى الإسلام تنحل من الناحيتين السياسية والحربية وتوشك على الانهيار فى الشرقين الأدنى والأوسط

كانت قوى الإسلام فى الغرب فى الأندلس تتلاشى رويداً رويداً أمام قوات المسيحية ، فكان الإسلام ، وكانت دار الإسلام مهددين بخطرين عظيمين لا يبقيان من ناحيتين شرقية وغربية ، من ناحية التتار ومن ناحية المسيحية ، ولو اتفق الاثنان ووحدا قواتهما لقضى على الإسلام .

ولكن لحسن حظ الإسلام والعالم أن خصميه العتيدين فى ذلك الوقت لم يتفقا ، وإن كانا قد حاولا الاتفاق ، ولم يحظ واحد منهما بنجاح حقيقى دائم ، وإن كان قد ظهر للبشر جميعاً فى حين من الدهر أن قوة الإسلام ووحدته الدينية ستصبحان كأمس الدابر ، لا سيما وأنه فى ذلك الوقت الذى تحقق فيه العالم من ضعف الإسلام ، هاجمت أوربا ديار الإسلام بقوتها وزهرة شبابها وأقوى محاربيها ونوابغ فرسانها وكبار صليبييها .

* * *

كاد الإسلام يسقط أمام هذه القوات الثلاث التى هددته من كل جانب ، ولكن ظهرت فى الإسلام قوات فتية ذات حيوية فائقة ستنقذه ، وتشيد مجده من جديد وترفع ذكره . هذه القوات الجديدة هى قوات الأتراك السلاجقة وقوة مصر الإسلامية الأيوبية والمملوكية ، وقوة المغرب الأقصى .

وكانت أقوى هذه القوات جميعاً وأبقاها قوة الأتراك .

لقد أجلت قوة المغرب الأقصى زوال الإسلام من الأندلس (أسبانيا) مدة من الزمن ، وأنقذت قوة الأتراك وقوة مصر الإسلام من الصليبيين ومن التتار ، و إلى هاتين القوتين يرجع الفضل فى إحياء الإسلام .

وقضت قوة الأتراك العثمانيين على آخر دولة مسيحية فى الشرق الأدنى ، وهى قوة الدولة البيزنطية على يد السلطان محمد الثانى باستيلائه على مدينة القسطنطينية ، ولأن كان الإسلام قد خسر عاصمة عظيمة بسقوط بغداد على يد التتار ، فلقد أقام السلطان محمد الفاتح عاصمة جديدة للاسلام فى أعظم مدن المسيحية

* * *

جدد الأتراك قوى الإسلام وأكسبوها حيوية جديدة من حدود الصين ووسط الهند إلى الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وبحر الأرخبيل ، لقد استطاع الأتراك فتح آسيا الصغرى لسلطان الإســلام السياسى والدينى ، و إن هجراتهم التى لم تــكن تنقطع لمدة أربعة قرون من أواسط آسيا إلى غربيها هى التى صبغت هذه الأجزاء صبغة تركية وأكسبت الإسلام عناصر قوية نشيطة .

عرفت آسيا الصغرى غزوات للعرب وفتوحات من عهد الخلفاء الراشدين إلى قرب أواخر العصر العباسى ، هذه الغزوات ما كانت تفتر وكانت تتجدد كل عام تقريباً فى كثير من الظروف . ولكن هذه الفتوحات كانت أشبه بمد وجزر من ناحية العرب ومن ناحية البيزنطيين ، فطوراً يتوغل العرب فى آسيا الصغرى ، وطوراً يرتدون إلى حدود الجزيرة والعراق .

ولكن الأتراك السلاجقة وحدهم هم الذين استطاعوا تثبيت قدم الإسلام فى آسيا الصغرى بعد أن ضربوا البيزنطيين ضربة حاسمة فى موقعة منذكرت فى القرن الحادى عشر الميلادى .

ومن ذلك الوقت بدأ الإسلام يتغلغل حقيقة فى آسيا الصغرى على يد هؤلاء الأتراك السلاجقة ومن تبعهم من القبائل التركية ، ولم تستطع كرات البيزنطيين المتكررة ولا هجمات الصليبيين العنيفة أن تزحزح الإسلام من قواعده فى آسيا الصغرى بصفة دائمة ، بل بالعكس انتشر الإسلام ، ودخل عدد كبير من السكان فى الدين الجديد أفواجاً ، بحيث لم يأت القرن الثالث عشر إلاوقد عم الإسلام وأصبح القوة المتفوقة فى آسيا الصغرى ، وعبر التجار والجنود المرتزقة من الأتراك إلى أوربا ، و إلى القسطنطينية ذاتها حيث شاهدوا أعظم

مدينة على سواحل البحر الأبيض ، وأجمل مدينة اختطتها يد الإنسان
تشرف على قارتين وبحرين ، و بهرهم غناها وفخامتها وموقعها الممتاز ،
وودوا لو أصبحت المدينة الخالدة على ضفة البوسفور معقلا من معاقل
الإسلام ، عاصمة لملكه وملاذاً لأهله .

* * *

ولكن السلجوقيين ما كانوا مستطيعين القيام بمثل هذه المهمة ،
وهى أعظم مهمة يستطيع الفاتحون بعد سقوط بغداد القيام بها
فالاستيلاء عليها معناه أكبر انتصار تستطيعه دولة ، وسقوطها معناه
القضاء على أمة وتحويل مجرى التاريخ العالمى و إحداث انقلاب بعيد
الأثر فى الحضارة .

وهم لا يستطيعون القيام بمهمة عجز العرب عنها فى أقوى عهودهم
وأعز أوقاتهم ، و إن كانت قد أتيحت للسلجوقيين فرصة لم تتح للعرب
من قبل ، فالسلجوقيون كانوا مالكين لآسيا الصغرى مقيمين فيها
قريبين من القسطنطينية ، ولكن قربهم لم يفدهم شيئاً ، فانقسام دولتهم
وتفرق كلمتهم وعدم توحيد جهودهم أضعف من نفوذهم وجعل من بينهم
فى آخر الأمر دويلات وشيعاً وأحزاباً حلفاء للبيزنطيين أنفسهم
تعمل فى كثير من الأحيان على منافسة زميلاتها ، بل والقضاء عليها .

ولكنه بالرغم من ذلك عاش الفرع السلجوقى الذى حكم آسيا الصغرى مدة ثلاثة قرون ، استطاع فيها بشجاعته ومهارته السياسية الاستفادة من المنافسة التى قامت بشكل حاد بين البيزنطيين والصليبيين . لقد هزم الأتراك السلاجقة البيزنطيين والصليبيين مراراً ، وأقاموا فى آسيا الصغرى إلى أن هبطتها قبيلة تركية فارة أمام قوات التتار . كانت هذه القبيلة فئة قليلة تفرعت منها فى فترة قصيرة من الزمن الدولة العثمانية .

ومبدأ ظهور الأتراك العثمانيين محوط بالخرافة وتتجمع حوله الأساطير ويظهر فيه الغموض حتى كأنما هبطوا من السماء أو انشقت عنهم الأرض أو هوت بهم الريح من مكان سحيق .

* * *

لقد نشأ السلطان محمد الثانى الفاتح فى دولة نهضت بسرعة ، دولة قامت على أشلاء الدولة السلجوقية ، وتفوقت لاختلاف الأمارات السلجوقية وتنازعها فيما بينها ، دولة ساعدها موقعها الجغرافى وقربها من الحدود البيزنطية على القيام بالحرب المقدسة ، فهوى إليها الأتراك من كل جانب ، قامت الدولة فى عهد عثمان وجعل الإسلام من أهلها ومن بقية الترك أمة موحدة ، بل إن الإسلام هو الذى جعل من الترك

والأغريق والمجريين والبلغار والألبانيين والصقالبة أمة واحدة ، وجعل من كل هذه العناصر المختلفة قوة أصبح اسم آل عثمان لها رمزاً وعقيدة .

أنشأ عثمان الشعب العثمانى ، وجعل أرخان من ذلك الشعب دولة تقوم على أسس إدارية وحربية وطيدة الأركان ، وانتقل الجيش العثمانى من نظام قبلى إلى نظام حربى ممتاز ، والفضل فى ذلك يرجع إلى أرخان وأخيه ووزيره علاء الدين ، وفى عهد أرخان وضع العثمانيون أقدامهم فى أوربا ، وثبتوا مراكزهم فيها حين افتتحوا أدرنة فأصبحت عاصمتهم إلى أن تم لهم الاستيلاء على القسطنطينية .

ولقد قام الأتراك العثمانيون بالفتح فى آسيا الصغرى والبلقان معاً ، وكما أصبحوا أكبر قوة فى آسيا الصغرى ، صاروا أعظم دولة فى البلقان بعد أن تمكن السلطان مراد الأول من كسر قوة الصرب والبلغار فى موقعتى ماريتزا وقوصوه فى أواخر القرن الرابع عشر ، فوقع البلقان تحت أقدام العثمانيين ، ولم تعد توجد فيه غير عناصر منحلة ، هذا فى الوقت الذى كانت تزداد فيه قوة الأتراك باستمرار الهجرة التركية من آسيا تدفعها حركات المغول . وبينما كانت الحالة مضطربة فى دول البلقان المسيحية كانت توجد بين الأتراك روابط متينة : دين واحد ، ونظام واحد ، وغاية واحدة .

ولربما استطاع السلطان بايزيد الأول القضاء على الامبراطورية لو امتاز بالتبصر وحسن السياسة ولو لم يواته سوء الحظ بغزو التتار ، فلقد لقب بالصاعقه يلدرم ، لقد قضى بايزيد على بلغاريا نهائياً وفتح بلدانها الواحد بعد الآخر ، كما تمكن من القضاء على قوة الصرب و إخضاع أجزاء من ألبانيا . ثم أعطى أوربا درساً قاسياً إذا أرادت تحدى قوة العثمانيين ، فلقد قضى على قوة التحالف الأوربى الصليبى فى موقعة نيكو بوليس فى أواخر القرن الرابع عشر

وربما كان بايزيد مستطيعاً فتح المدينة الخالدة لولا تردده وضعف أسطوله وعدم استكمال استعدادته ومجىء خطر التتار الداهم . لقد أرسل تيمور رسالته الشهيرة إلى بايزيد وهو يحاصر القسطنطينية الأمر الذى دعاه إلى رفع الحصار عنها ، وانهزم العثمانيون أمام التتار فى موقعة أنقرة لتفريط بايزيد وسوء سياسته ، واستقلت بعض الأمارات التركية مثل قرمان وأيدين وكرميان ، و بدأت الدولة البيزنطية تنهض من محنتها .

ولكن حسن الحظ واتى العثمانيين ، فلقد مل تيمورلنك الفتوح فى آسيا الصغرى ، ورجع إلى سمرقند ، وفكر فى فتح الصين ومات ، ولم يأسف عليه الإسلام ، ولحسن حظ العثمانيين أيضاً بالرغم من الحرب الأهلية التى قامت بين أبناء بايزيد استطاع أحدهم أخيراً وهوالسلطان

محمد الأول أن يوحد قوى العثمانيين ، وأن يتبع سياسة السلام لتثبيت دعائم الدولة من جديد . ومن حسن حظ العثمانيين أن زاد عدد الأتراك الهاربين أمام جحافل المغول فامتلأت بهم آسيا الصغرى وأملاك الدولة العثمانية فى أوربا ، وانضم إليهم عدد كبير من أبناء المسيحيين البلقانيين ، فازدادت قوة الدولة من الناحية الحربية بهذه العناصر الجديدة .

وفى عهد السلطان مراد الثانى وهو أب الفاتح سيطر العثمانيون على آسيا الصغرى والبلقان ، وانتصروا على البنادقة ، واكتسحوا شبه جزيرة اليونان ، وهزموا المجريين والألبانيين ، وأصبح للعثمانيين التفوق فى البلقان ، وذهب نهائياً الخطر الأوربى بعد موقعتى ورنه وقوصوه فأصبح الأتراك فى مأمن من ناحية الدانوب ، وألزم الامبراطور البيزنطى بدفع الجزية . ولم يبق من ممتلكات الدولة البيزنطية إلا القسطنطينية وضواحيها . فكان الاستيلاء على هذه المدينة مهمة أعظم سلاطين هذه الدولة ، وهو السلطان محمد الثانى الذى سيلقب بالفاتح لفتحه هذه المدينة ، و بالقانونى لتنظيمه القوانين العثمانية